



"بابا أنت صرت كبير، لأيش تدرس؟؛ متى تخلص دراسة؟؛" أطلقها طفلتي ببراءة؛ لكنها وقعت كالמטרقة على رأسي. لم يكن هذا الموقف الوحيد الذي يعيديني إلى أيام الطلب، فأغضض أصابع الندم أن تزوجت قبل أن أنهي دراستي، فكان الموقف الذي شيعني فيه أولادي يوم أردت السفر إلى الجامعة لأنجز ما بقي من رسالتي للدكتوراه كأنما هي جنازتي، فاصطفوا حول السيارة ليودعني، لكنني شعرت أنهم يشيّعون جنازتي.

لا أعرف وقتها ما الذي شوش رأسي فشعرت للحظة بالندم أنني قررت أن أتابع دراستي وأنا متزوج ولدي خمسة أطفال، خشيت أن أقع في محظوظ حديث النبي عليه الصلاة والسلام: (كفى المرأة إثماً أن يضيع من يعول)، وتساءلت: هل يكفي أن يكون لهم بيت يسكنونه ومال يصرفونه حتى لا أكون كذلك؟ أم أن سفري أو انشغالي عنهم بدراستي لا ينجيني من ذاك؟!

لُعِزِّيْنِي كلامَ لهم يطلقونها أحياناً: بابا أريد أن أصبح دكتوراً مثلك! "كل الناس تحب كل الناس تحترمك؛ أنا أريد أن أصبح دكتور! بابا أنا أين ما ذهبت وعرفتهم بنفسي يسألونني فوراً: أنت ابنة فلان؛ الكل يعرفونك! مثل هذه العبارات كانت تعزّيْنِي وتدفعني فعلاً للإكمال، لكن مواقف أخرى كانت تقلّل عزيمتي على إكمال الدكتوراه؛ فقد قرأت في نظرات والدتي حفظها الله وأنا أودّعها تحفيزاً وتشجيعاً: اذهب وفُفك الله وفتح عليك من أبوابه وحماك؛ كانت دعواتِ جميلة لكتها

ذلك كانت تأيني تأييناً، كنت أقرأ فيها: أين ترُكني مع هؤلاء الصِّغار الخمسة ومع زوجتك لِتذهب إلى دراستك؟ لا تخجل من نفسك أن ترُكنا أكواً من لحم لِتذهب إلى دراسة؟ هل يليق بأب مثلك أن يبقى طالباً حتى اليوم؟!

لم أستطع النظر في وجهها طويلاً وأنا أودّعها، وبجانبها امرأتي ودعتها وأنا مطرق الرأس مع حبي النظر في وجهها وقراءة عينيها الجميلتين؛ لكن أنّ لي بالنظر في وجهها وأنا أتركها مع أمي ذات الستين عاماً وأولادي الخمسة ل تقوم بهم مع مدرستها؟! همّهتْ بدعوات طيبة وأمنيات بالتوفيق والحفظ والسلامة، لكنها كانت كذلك سكاكيـن في صدري.

انطلاقت وصورهم تعرض لي في طريقي واحداً واحدةً وواحدةً واحدةً، تتراءى لي أمي حيناً وزوجتي حيناً آخر.

تراثي لي ابنتي الصغيرة وهي تودعني: "بابا سأشتاق لك، بابا من سيأخذني إلى الملاهي؟!" ثم يتراءى لي ولدي: "بابا سأتبع  
الحفظ إن شاء الله لأكون كما وعدتك وأنجز الحفظ قبل العيد إن شاء الله".

لم أكن أعرف أن هذا الوداع لن يكون كفيره، وظننتني تعودت السفر وتعودت وداعهم؛ فكثيراً ما سافرت، كثيراً ما غبت عنهم للعمل، لكن هذه المرة كان وداعاً بطعم آخر، لم أتركهم لأبحث لهم عن لقمة العيش، تركتهم لأبحث لنفسي عن الشهادة العالمية وإن كنت أريدها للعيش ولغير ذلك.

سنواتٌ وأنا أخرج من بيتي أيام الإجازة تودعني أم وأخواتي وأبي جالس يدعولي لم أكنأشعر بهم، و كنت أصرف من جيبِ  
أحبابها مليئة وهي فيها اليسيير؛ فأنا أصغر إخوتي وأبى أقعده عند دراستي الجامعية المرض وكان إخوتي يعملون، لكن كنت  
أصرف كأنها مليئة لأنني لا أفكّر بسبيل تأمين ما يملؤها، بل بما يسعفي في دراسي ويسعدني، حال أكثر أبناء الأرياف ممكّن  
يحملهم أهلوهم في دراستهم وأكثر حياتهم الأولى، والثانية كأنما هو حق لنا لا منة لهم علينا فيه.

فما لي أقف اليوم عند كلمة لا ينتي الصغيرة أو نظرة لزوجتي وأنا أخرج مسافراً للدراسة؟!!  
وأنا مأخوذ بنشوة الدراسة وعنوان الشباب فلا أرها، وترسل دعواتٍ شتى تحفني تلامس مسمعي لكن قلبي في غيبوبة عنها.  
للدراسة؛ فكانوا يودعونني وأنا أنظر أمامي لا أكاد أنظر إليهم، وأصرف ولا أفكر كيف يأتي المتصروف، وربما تدمع عين أمي  
نفعني تحفيزهم حتى أنهيت الإجازة وببلوم الدراسات العليا من جيوبهم، دون أن أشعر بما أجده اليوم وأنا أعود للسفر  
اليوم بعد سنوات من ذلك وسنوات من موت أبي رحمة الله أستشعر قيمة ما قدّمه لي هو وإخوتي الذين يكتبونني، وكل

إن هذا بعضٌ من ضرورةِ التأخر في إنتهاء الدراسة، والنبي صل الله عليه وسلم يقول: (الولد مَجْبُنَةً بِمَبْخَلَةٍ مَحْزُونَةٍ)؛ وذلك أنه سببُ الجهل وللحزن والتّخاذل والبخل، وهو كذلك فعلاً، لكنَّ المرءَ حكيمٌ نفسه، إن كان يرضى أن يكون أولاده كذلك أو أن يقاوم ليثبت لنفسه ولأولاده أنَّ طلب العلم لا يعرُفُ سِنًا وأنَّه لا يُشترط الرّهابانية لمن يريد أن يُكمِّل دراسته فبحقّ ما يحلم به علمياً وما يريده.

فهي ليست دعوةً لأن يترك المتزوجون التعلم بل دعوةً لأن يجتهد المرء ما استطاع في تحصيل ما يريد قبل أن يتقدم به العمر ويكون له زوجة وأولاد، فربما يقصّر بحقهم إن أراد متابعة التّحصيل. وهي دعوةً للمتزوجين ليتابعوا تحصيلهم فيكونوا قدوةً عمليةً لأولادهم في أن التّحصيل لا ينتهي مع الزواج ولا ينتهي مع الولد، وأن التّحصيل لا يُشرط فيه العمر بل كما قيل: لا يزال العالم عالماً ما تعلم، فإن قال قد علمتُ فقد جهل!

إنها دعوة للشباب ليعرفوا لأهلهم حقهم، وليقدّروا ما يأخذونه ويصرفونه دون حساب، ليشاركونا في تأمينه فيشعروا أكثر بقيمتة؛ فإنه سبّاتيك يوم تكره من ولدك أن يصرف من تبعك دون حساب ولا مشاركة فيه.

إن كنتَ ترى العلم والشهادة هدفاً سامياً فاستصغِرْ كُلَّ العوائق دونه؛ فليسَ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنَ الْعِلْمِ، وَكُلُّ العوائقِ يُمْكِنُ تجاوزُها في سبيلِ الرسالة السامية، في سبيلِ (اقرأ).

لكن ضوء (كفى المرء إنما أن يضيع من يعول) لا بدَّ أن يبقى مشتغلاً في لوحةِ السيارة أمامك وأنك تتعلم، وأنك تقود سيارتكَ في مراقيِ العلم وتحصيلِ الشهادات.

كنتُ أظنُّ أَنِّي أَوْدَبْ أَوْلَادِي وَأَرْبَيْهُمْ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَعْرُفُ سِنًا، لَكُلَّهُمْ كَانُوا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَرْبُونَنِي أَنَّهُ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ أَبًا لِائْنَافًا بِأَوْلَادِكَ فَتُتَجَزِّزَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ قَبْلِ ذَلِكَ، فَكَانَ تَأْدِيبُهُمْ إِيَّاهُمْ أَقْوَى مِنْ تَأْدِيبِي إِيَّاهُمْ، وَكَانَتْ نَظَرَاتُهُمْ عَلَى بَرَاءَتِهَا أَشَدَّ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ فِي صَدْرِي وَأَشَدُّ مِنْ نَظَرَاتِي فِي نَفْوِهِمْ. قد يخافون إن نظرتُ إليهم، لكنني خفتُ هذه المرأة مِنْهُمْ أكثر، فقد كانت نظاراتُهُمْ نظاراتٍ تَأْنِيبٍ وتحفيزٍ لي أَنِّي لَا بُدَّ أَنْ أَنْتَهَيْ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ أَبًا وَأَكُفَّ عَنْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي أَسْتَوِي فِيهَا مَعْهُمْ فِي الْطَّلَبِ، فَلَا بُدَّ أَنْ أَكُونَ مُعْلِمًا وَأَبًا وَلَيْسَ أَبًا طَالِبًا.

المصادر: